مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع JALHSS
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences – JALHSS
www.jalhss.com ISSN:2414 – 3383
العدد (21) آذار - مارس 2018

التحولات الفكريّة والتعليميّة في دمشق ودورها في التمدّن الجديد (نظرة على القرن التاسع عشر)

باحثة في قسم الدراسات العربية والإسلامية
كندة السمارة
جامعة ملبورن
مدينة ملبورن - استراليا

الخلاصة

بدأت تتسلل الحداثة الغربية إلى العالم العربي مع انفتاح كل من مصر والدولة العثمانية على أوروبا فظهرت حركة تعليميّة جديدة بدأت شرارتها مع الانتباه للتفوق الغربي. فتشكّلت لدى المثقفين العرب رغبة حقيقية بالتغيير عبر تطبيق أدوات المدنية الجديدة في المدن العربية. ومع مطلع القرن التاسع عشر، بزغ فجر النهضة وكان حافلاً بالتحولات الثقافيّة والفكريّة الهامّة، الّتي انبهر فيها المثقفون العرب بأفكار عصر التنوير، فلاقت استحساناً وترحيباً لديهم، واستحوذت عليهم فكرة قيام دولة مدنية عصرية. ستسلط هذه الدراسة الضوء، وذلك عبر الخروج عن المألوف بإعادة النظر في العلاقة بين العرب والغرب، وأنّه وعلى الرغم من الطموحات الاستعمارية الغربية في البلاد العربية، إلا أنّ المفكرين العرب قد أقبلوا على أفكار التنوير الأوروبي دون اعتقادهم بأن الدين لا ينسجم مع قيم المدنية الجديدة، وهذه الدراسة ما هي إلا محاولة محدودة ضمن هذا الإطار. حيث ستركّز هذه الدراسة على مدينة دمشق بشكل خاص، وسوريا بشكل عام، وذلك لتقصّي الدور الذي لعبه الانفتاح المتزايد على أوروبا والغرب في الحراك الثقافي للوصول للتمدن الحديث. وعلى الرغم من أنّ التراكم البحثي فيما يخص نشوء التعليم الحديث في العالم العربي قد حظي باهتمام واسع بين الباحثين العرب والأجانب، كما أنّ الدراسات المتوفرة عن الموضوع كثيرة، إلا أنّ الاهتمام بعلاقة التعليم الحديث ومفهوم "التمدّن الجديد" في مدينة دمشق تحديداً كما انتشر في أدبيات تلك الحقبة بقي محدوداً. وذلك ليساعدنا على فهم إشكالية تجربة التحديث، وعدم القدرة في المحافظة على زخم الانطلاقة، وحماس البدايات، لنراها أنها لم تنجح بعد أكثر من قرن ونصف القرن في أن تضرب لنفسها جذوراً محلية مستقرة وفاعلة. خاصة وأنّ الدور الذي لعبته المدارس والتعليم الحديث بإعدادهما قاعدة ثقافية وتعليميّة في القرن التاسع عشر عكست تحولات لتجربة واعدة للتمدّن الجديد. وغياب هذا الجانب من خطابات اليقظة العربية أدى إلى عدم التنبه لأهمية دور التعليم والمدارس الحديثة في التمدن الجديد من جهة وصناعة اليقظة العربية من جهة أخرى. فإشكاليات سوء الفهم هذه لم تقتصر على الغرب فقط، بل تعدّته لتشمل العرب أيضاً.

Intellectual and Educational Transformations, and New Urbanity in Damascus (A View of the Nineteenth Century)

Researcher
Kinda Al-Samara
Faculty of Art
The University of Melbourne
Melbourne - Australia

ABSTRACT

It has been commonplace among Arab scholars to look at the relationship with the West, since Napoleon's invasion of Egypt, as being a continuous struggle against hegemony and colonial interests. In his most influential book, Orientalism, Edward Said provided the foundations and theoretical tools for this prevailing mode of thinking. This dominating trend, however, has obliterated the fact that in the nineteenth century many Arab intellectuals as well as the majority of the general public have embraced the West with open arms despite their colonial agenda. In their enthusiastic engagement with the new Englishmen ideas of the French Revolution, Western hegemony and colonial interest were issues of minor concerns. Their relentless drive for scientific advancement and modern urbanity overshadowed all else in their active interactions with the West. This paper focuses on the emergence of new model of education, as an outcome of the Arab-European interactions, and its agency in the promotion of Western thinking and modern urbanity in the Arab world.

مقدّمة

يصف لنا المؤرخ والأديب الدمشقي نعمان قساطلي (1854-1920) في كتابه **الروضة الغناء في دمشق الفيحاء**، أخبار التعليم والمعارف في دمشق، "أنه لكثرة ما طرأ عليها من الحروب والتقلبات السياسية دالت دولة العلم فيها فأُهملت مدارسه، وتشتت شمل مكاتبه. "[1]كما يذكر الصحفي والشاعر شاهين مكاريوس (1853-1910) في أعمال المجمع العلمي الشرقي لعام 1883 والتي قدّم فيها دراسة شبه توثيقية عن حال المعارف السوريّة،[2]

كانت فيما سلف على غاية الفلاح والعمر ان اشتهر كثيرون من أهلها بالعلم والمعرفة حتى بلغت علومها وصنائعها إلى البلدان الشاسعة البعد عنها. ولكن الدهر الخؤون أبى إلا معاندتها فلم يبقى منها سوى بعض آثارها وذهب بما كانت حصلتّه من المعرفة إلى قوم آخرين ولم تزل في تأخر وانحطاط حتى جاءها الافرنج فأحييت بقية العلم فيها ونفضت غبار الكسل عنها وساعدها الحكم المدني فكثرت فيها المطابع والمدارس وزادت المؤلفات.[3]

بدأت تتسلل الحداثة الغربية إلى العالم العربي مع انفتاح كل من مصر والدولة العثمانية على أوروبا فظهرت حركة تعليميّة جديدة بدأت شرارتها مع الانتباه للتفوق الغربي. فتشكّلت لدى النخب السياسية والمثقفين العرب رغبة حقيقية بالتغيير عبر تطبيق أدوات المدنية الجديدة في المدن العربية. يقول جرجي زيدان، "أنّ العرب أكثر الأمم استعدادًا للحضارة وسياسة الملك، لا يقلّون في ذلك عن سواهم من الأمم التي تمدنت قديماً أو حديثاً. "[4] ومع مطلع القرن التاسع عشر، بزغ فجر النهضة وكان حافلاً بالتحولات الثقافيّة والفكريّة الهامّة، الّتي انبهر فيها المثقفون العرب بأفكار عصر التنوير، فلاقت استحساناً وترحيباً لديهم، واستحوذت عليهم فكرة قيام دولة مدنية عصرية.[5] وعلى الرغم من أن احتكاك العرب مع الغرب ما انقطع يوماً،[6] إلا أنّ وصول الحملة الفرنسية على مصر، وطرقها أبواب سوريا كان له بالغ الأثر في ظهور التمدن الجديد في العالم العربي.[7] وإن فشلت حملة نابليون العسكرية، فإنّ البعثة العلميّة المصاحبة للحملة وما رافقها من علماء وباحثين نجحوا في لفت انتباه العرب إلىتأخرهم، ووجدوا أنفسهم أمام غرب متفوق، رفيع التمدن.[8]

---

1 نعمان قساطلي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء (بيروت: دار الرائد العربي، 1879)، 117.

2 تأسست في بيروت جمعية للمرسلين الأمريكان حملت اسم الجمعية السورية والتي استمرت من 1847 وحتى 1852، تألفت من نحو خمسين عضواً، كان من بينهم اليازجي والبستاني ونوفل ومشارقة وغيرهم، ولكن عهد هذه الجمعية اللغوية العلمية لم يطل كذلك. وفي 1850 تمّ إنشاء الجمعية المشرقية بجهود من اليسوعيين ثمّ توقفت، ثم أنشأ الأمريكان للمرة الثانية جمعية سميت بالمجمع العلمي الشرقي في عام 1882 وترأسها الدكتوران فانديك وورتبات. فؤاد سيد صالح، أشهر الأحداث العالمية، 1-1899 (بيروت: مكتبة حسن العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، 2015)، 583.

3 شاهين مكاريوس، المعارف السورية، أعمال المجمع العلمي الشرقي، جلسة 10 كانون الثاني (1882)، 79-106.

4 جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي (القاهرة: دار الهلال، 1914)، 1: 16.

5 رئيف خوري، الفكر العربي الحديث، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، تحقيق محمد كامل الخطيب (دمشق: وزارة الثقافة، 1993)، 12-22. عليان الجالودي، التحولات الفكرية في العالم الإسلامي: أعلام، وكتب، وحركات، وأفكار من القرن العاشر إلى الثاني عشر الهجري (الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الاسلامي، 2014)، 641.

6 للمزيد حول التفاعل الحضاري بين العثمانيين والغرب: ليلى الصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1989).

Avner Ben-Zaken, Cross-Cultural Scientific Exchanges in the Eastern Mediterranean, 1560–1660 (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2010), 22-35. Giancarlo Casale, The Ottoman Age of Exploration (Oxford: Oxford University Press, 2010), 30-47.

7 Nezar AlSayyad, Cairo: Histories of a City (Cambridge, Massachusetts: The Belknap Press of Harvard University Press, 2011), 171-198.

8 فهمي جدعان، الماضي والحاضر، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997)، 471.هشام جعيط، "أثر فلسفة التنوير على تطور الفكر في العالم العربي - الإسلامي" مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد، 37، كانون الأول، كانون الثاني (1985- 1986)، 21.

اكتشف العالم الإسلامي-العربي ضعفه ووجد نفسه أمام غرب مسيحي متقدّم علميّاً وعسكرياً لا يمكن مجاراته، خاصة وأنّ الدين المسيحي ليس الركيزة التي أدّت إلى نهوض الغرب الجديد وتمدنه. فأدرك المثقفون العرب بأنّ الغرب قد تجاوزهم قوة، كما أدركوا أنهم قد أصبحوا على هامش الغرب، في شتى مجالات التمدن الجديد. فتولّدت لديهم الرغبة في مجاراة التطورات العلميّة، ومشاركتهم الغرب في التفوق، وذلك للمساهمة في صنع تغييرات جديدة تنقل مجتمعهم إلى الحداثة.[9] يذكر ألبرت حوراني أنّ، "قوة أوروبا وعظمتها، والعلم والتقانة الحديثة، والمؤسسات السياسية في الدول الأوربية، والأخلاق الاجتماعية في المجتمعات الحديثة، كانت الموضوعات الأثيرة لدى بعض المؤلفين، وكانوا يطرحون المسألة بعمق: كيف يتمكّن العرب المسلمون، والدولة العثمانيّة المسلمة، من أن يمتلكوا القوة لمواجهة أوروبا وأن يصبحوا جزءاً متكاملاً من العالم الحديث."[10] هذا التفوق الذي أدركه المتنورون العرب في القرن التاسع عشر، مسلمون ومسيحيون، دون أي تنافر أو تصادم. فقد فهموا بأنهم حتى لو استفادوا من ذلك التفوّق فهو لن يلغي بقدومه الجوانب المضيئة من الحضارة العربية الإسلامية.

ستسلط هذه الدراسة الضوء، وذلك عبر الخروج عن المألوف بإعادة النظر في العلاقة بين العرب والغرب، وأنّه وعلى الرغم من الطموحات الاستعمارية الغربية في البلاد العربية، إلا أنّ المفكرين العرب قد أقبلوا على أفكار التنوير الأوروبي دون اعتقادهم بأن الدين لا ينسجم مع قيم المدنية الجديدة، وهذه الدراسة ما هي إلا محاولة محدودة ضمن هذا الإطار.[11] وإن كنّا قد تكلمنا سابقاً عن الدور الذي لعبته الصحافة، والمرأة كونهما ركنان أساسيان من أركان التمدّن الجديد، كان لابدّ من أن يكون للحديث بقية بالبحث عن كافة الظروف والأدوات التي اكتشف فيها العرب تقدّم أوروبا، بعد أن كان قد استقرّ في وعيهم ولعقود طويلة تفوقهم على العالمين. حيث ستركّز هذه الدراسة على مدينة دمشق بشكل خاص، وسوريا بشكل عام،[12] وذلك لتقصّي الدور الذي لعبه الانفتاح المتزايد على أوروبا والغرب في الحراك الثقافي في القرن التاسع عشر للوصول للتمدن الحديث. وعلى الرغم من أنّ التراكم البحثي فيما يخص نشوء التعليم الحديث في العالم العربي قد حظي باهتمام واسع بين الباحثين العرب والأجانب، كما أنّ الدراسات المتوفرة عن الموضوع كثيرة،[13] إلا أنّ الاهتمام بعلاقة التعليم الحديث

9 للمزيد على انفتاح الولايات العثمانية على الغرب، دراسة أحمد الشبول، في كتاب نجمة حجار (تحرير)، أمين الريحاني والتجدد العربي: تحديات التغيير في الأدب والفكر والمجتمع (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، 79-81.

10 ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، (دمشق: دار طلاس، 1997)، 374.

11 هناك العديد من الدراسات التي تقوم بتقصي إشكاليات الفجوة الحاصلة اليوم بين العالم الغربي والعالم العربي وتتبع أسباب التباعد بينهما

Ahmad Shboul, "Between Rhetoric and Reality: Islam and Politics in the Arab World," In Nelly Lahoud; Anthony H Johns (eds.), Islam in world politics (London and New York: Routledge, 2005), 170-191.

12 عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914 (القاهرة: دار الفكر العربي، 1969). ولاية سورية أو الولاية الشامية، هي ولاية عثمانية كانت تضمّ المنطقة الداخلية لسورية، الممتدّة من جنوب حلب وحتى البحر الأحمر، وحدود سيناء، ومنطقة تبوك في الحجاز جنوباً. تسير حدود هذه الولاية من الغرب بمحاذاة جبال الساحل السوري وتضم سهل البقاع.

13 محمد ابراهيم الحوراني، التعليم في ولاية دمشق في العصر العثماني (دمشق: وزارة الثقافة، 2015). عبد الكريم رافق، تاريخ الجامعة السورية: البداية والنمو 1901-1946: أول جامعة حكومية في الوطن العربي (دمشق: مكتبة نوبل، 2004). محمد بسام العش، دمشق بين الماضي والحاضر (دمشق: محمد بسام العش، 2006).

Emine Önhan Evered, Empire and Education under the Ottomans: Politics, Reform, and Resistance from the Tanzimat to the Young Turks (London: I.B. Tauris, New York: Palgrave Macmillan, 2012).

Selçuk Aksin Somel, The Modernization of Public Education in the Ottoman Empire, 1839-1908: Islamization, Autocracy and Discipline (Leiden: E. J. Brill, 2001). Leila Hudson, Transforming Damascus: Space and Modernity in an Islamic City (London; New York: Tauris Academic Studies, 2008). Betty S Anderson, American University of Beirut: Arab Nationalism and Liberal Education (Austin: University of Texas Press, 2014). Randi Carolyn Deguilhem-Schoem, History of Waqf and Case Studies from Damascus in Late Ottoman and French Mandatory Times (New York: Pro Quest NYU, 1985).

ومفهوم "التمدّن الجديد" في مدينة دمشق تحديداً كما انتشر في أدبيات تلك الحقبة بقي محدوداً. وذلك ليساعدنا على فهم إشكالية تجربة التحديث، وعدم القدرة في المحافظة على زخم الانطلاقة، وحماس البدايات، لنرى أنها لم تنجح بعد أكثر من قرن ونصف القرن في أن تضرب لنفسها جذوراً محلية مستقرة وفاعلة. خاصة وأنّ الدور الذي لعبته المدارس والتعليم الحديث بإعدادهما قاعدة ثقافية وتعليميّة في القرن التاسع عشر عكست تحولات لتجربة واعدة للتمدّن الجديد. وغياب هذا الجانب من خطابات اليقظة العربية أدى إلى عدم التنبه لأهمية دور التعليم والمدارس الحديثة في التمدن الجديد من جهة وصناعة اليقظة العربية من جهة أخرى. فإشكاليات سوء الفهم هذه لم تقتصر على الغرب فقط، بل تعدّته لتشمل العرب أيضاً.

أحوال التعليم قبل القرن التاسع عشر

كانت أحوال العلوم والطّب والهندسة والآداب مازالت عامرة في دمشق حتى القرن السادس عشر ميلادي، وكانت البلاد ماتزال تزخر بالعديد من المدارس والكتاتيب، إلى أن بدأت أحوال التعليم بالتراجع، وبلغ بحسب كرد علي مبلغه من "السخف" فيقول،

من العجيب أن مدينة كدمشق لا يقل سكانها عن ثلاثمائة ألف نسمة كان فيها في الثلث الأول من القرن العاشر [الهجري] نحو ثلاثمائة مدرسة ومعهد مختلفة الشكل ـ عدا الكتاتيب الملحقة بالجوامع ـ تقرأ فيها دروس العلم والأدب والطب والهندسة، ليس فيها اليوم درس ديني واحد يقرأ بصورة مطردة، ولذلك بلغت العلوم الشرعية درجة من الضعف تضحك وتبكي، وبلغت أكثر وظائف الوعظ والتدريس والخطابة والإمامة من السخف ما نسأل الله معه السلامة.[14]

أسند بعض المؤرخين أسباب تراجع التعليم إلى سيطرة طبقة رجال الدين على سائر العلوم، وهؤلاء وصل أغلبهم إلى مناصبهم عبر الوراثة بعد أن كانوا يصلون إليها بسبب تقدّمهم العلمي. ويعود السبب في ذلك لانتشار قاعدة "خبز الأب للابن،" والتي أفتى بها مفتي الآستانة، ومتولي مشيخة الاسلام أبو السعود أفندي المتوفي في 1574. حيث أصدر فتوى تشمل وظائف الأوقاف والتكايا والزوايا تحت ما سمّاه "خبز الآباء للأبناء،" فإذا مات الخطيب أو الامام لا يبحث عن أحد يكون أهلاً بأن يخلفه بل تنتقل وظيفته مباشرة إلى ابنه والذي في أغلب الأحيان قد لا يكون على دراية أو علم بالأمور فيلبس عِمّة الأب على رأسه. وبهذا "أصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية توسد إلى الجهلة، كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم. "[15] فبلغ الجهل حتّى تسلّم القضاء الأميون "وكم من أمي غدا في دمشق وحلب والقدس وبيروت قاضي القضاة. "[16] فاستأثر رجال الدين، المسلمون الإشراف بهذه المراكز، فشكلوا طبقة اجتماعية ذات نفوذ وأصبحت تحارب كل جديد، وبذلك تحافظ على مكانتها وتحكم، إلى أن وصل الجهل بالعلماء حدّاً أنهم "إذا أرادوا الخطب في الجوامع والمساجد يحفظون شيئا منها لأهل العصور التي سلفت ويوردونها بدون مناسبة، بل إنّ الإجازات التي يكتبها الشيوخ وغيرها من التحميدات والتقاريظ وأدعية المواسم ينقلونها عن الأقدمين ويحرفونها على صورة مستكرهة،" في نفس الوقت الذي كانت فيه الشعوب الغربية تتهيأ لوضع مفاهيم جديدة عن العلوم والمعرفة.[17] وبهذا أخذ الفكر العربي والإسلامي يمرّ بمرحلة تراجع، ومراكز العلوم والثقافة تقوم باجترار ما تبقّى من علوم المسلمين الدينية والدنيوية، كالحديث والتفسير والفقه والأدب والمنطق والحساب. "وصارت الفتوى والقضاء والمناصب العلميّة ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمير. "[18] فتراجعت العلوم إلى أن بلغ الجهل مبلغه فوصل العلماء فيها لمرحلة أضحوا عاجزين فيها حتى عن الكتابة والقراءة. يضيف المؤرخ محمد كرد علي "قد ضعفت في هذا القرن ملكة البيان في المسلمين. وهم يتلون القرآن ولكن بدون أن يتدبروا معانيه ويفهموا إعجازه،

14 محمد كرد علي، خطط الشام (دمشق: مكتبة النوري، 1983)، 4: 75.
15 المرجع نفسه، 4: 70.
16 المرجع نفسه، 4: 70.
17 المرجع نفسه، 4:70.
18 المرجع نفسه، 4: 57.

حتى أصبح الفقيه والمحدّث والنحوي والمنطقي لا يحسن كتابة سطرين إلا بصعوبة. ويتعاصى عليه فهم الكلام الفصيح دون الرجوع في المفردات البسيطة إلى المعاجم."[19] لذلك وليحافظ أعضاء تلك الطبقة من رجال الدين ومن تسمّوا باسم العلماء على مناصبهم قاموا بتشكيل شريحة لا يستهان بقوتها، فكانوا عبارة عن منظّمة هرميّة وإن كانت غير رسمية إلا أنّها كانت تتمتع وضمن المذهب الواحد بالسلطة في التدريس والافتاء. وتولّى هؤلاء الإدارة الدينية والعلمية ومنحتهم الدولة المرتبات، وبالرغم من ذلك، لم يكن في دمشق ما يوازي أهمية منصب شيخ الاسلام في إستانبول.[20] حيث شهدت الحركة التعليميّة تراجعاً مطردا في عهد الدولة العثمانية، كما أخذ عدد المتعلمين يتقلّص.

ومع نهاية القرن الثامن عشر أضحى العثمانيون الذين كانت تهاب قوتهم في سائر العالم يعرفون بـ "رجل أوروبا المريض،" وطغى الجمود الثقافي والفكري في الولايات العثمانية. يقول المفكر أحمد فارس الشدياق (1804-1887) وهو الذي عاين التمدن الأوربي، معتبراً انتشار المعارف والمدارس الحديثة من أهم أركان التمدّن الجديد، "كنت دائم التفكر في خلو بلادنا عما عندهم من التمدن، والبراعة والتفنن، ثم تعرض لي عوارض من السلوان، بأن أهل بلادنا قد اختصوا بأخلاق حسنة، وكرم يغطي العيوب.... ثم أعود إلى التفكر في المصالح المدنية [في أوروبا]، والأسباب المعاشية، وانتشار المعارف العمومية،"[21] اعتبر الشدياق ورفاقه انتشار المعارف العمومية في البلاد الأوربيّة سبباً هاماً لترقي البلاد، وهي أحد المقاييس الأساسية للتقدّم والتحوّل نحو التمدّن الجديد. يقول رفيق العظم (1867-1925) وهو أحد مفكري القرن التاسع عشر، "لا يعدّ الوطن متمدناً ما لم تتوفر في أهله جميع الأسباب المدنية، كالإقبال على طلب العلوم والمعارف وحبّ الفنون والصنائع وإنشاء المعامل والمدارس."[22] فأدرك روّاد النهضة العربية أنّ العلوم والمعارف والمدارس هي عنوان التقدّم والحضارة، وذلك بعيداً عن سيطرة رجال الدين، وهذا ما كانت تفتقده الولايات العثمانية والتي اقتصر التعليم فيها على العلوم الدينيّة واللغويّة التي تدرّس ضمن المساجد والأديرة. وقد انحصرت في نوعين:

الكتاتيب: وتقام عادة بالقرب من المساجد وفي بعض الأحيان تكون ضمن المسجد أو في الزوايا أو حتى في بعض الأحيان داخل منزل الشيخ المعلّم نفسه. يتم الحاق الأولاد في سن مبكرة ضمن الكتاتيب، ويقتصر تعليم الأولاد في المرحلة الأولى على تعلّم مبادئ القراءة والكتابة والحساب وحفظ وتلاوة القرآن. يسمى المعلّم في الكتّاب الشيخ أو المؤدّب، وكان تعليم الكتاتيب في أغلب الأحيان مجانياً، إذا كان مؤسّسها من الأغنياء فيكون قد أوقفها لهذا الغرض، أما في حال كان الكتّاب للشيخ نفسه، فإنه يتقاضى أجرة رمزية نوعية (خبز وبيض وحطب مثلاً) على كل تلميذ تسمى بـ (الخميسية) وسميّت كذلك لأن الشيخ كان يتقاضى أجرته يوم الخميس من كل أسبوع.[23] ينتقل بعدها التلميذ إلى المرحلة الثانية من التعليم فيتعلّم فيها الفقه الإسلامي والحديث. كانت تقام وليمة بعد ان يختم الولد القرآن قراءة – وليس حفظاً بالضرورة – ويكون الصبي في حدود ٩ أو ١٠ سنوات من عمره يتم فيها حضور والد الطالب، وشيخه، ورفاقه الذين ينشدون له المدائح النبوية احتفالاً بإتمامه هذه المرحلة.[24]

المدارس الدينية: وهي المدارس التي تشرف عليها الأوقاف مباشرة فتقوم بتحديد عدد الأساتذة، وحجم المدرسة، وعدد الطلاب. يدفع نفقات هذه المدارس السلاطين، أو الأمراء، أو الأغنياء، (وينطبق نفس الحال على مدارس الأديرة)، تلحق المدراس الدينية عادة بالجوامع (أو بالأديرة) حيث ترصد لها الأموال شهرياً لتغطية نفقات التلاميذ، والأساتذة، والعاملين فيها وتأمين احتياجاتهم في الكتابة والدروس. كان من أهم المدارس الإسلامية

19 المرجع نفسه، 4: 75.
20 ليندا شيلشر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة، عمرو الملاح - دينا الملاح (دمشق: دار الجمهورية، 1998)، 137.
21 أحمد فارس الشدياق، الرحلة الموسومة بالواسطة إلى معرفة مالطة، وكشف المخبا عن فنون أوروبا (تونس: مطبعة الدولة التونسية، 1866، [1283ه])، 3.
22 رفيق العظم، البيان في التمدن وأسباب العمران (القاهرة: المطبعة المصرية، 1886)، 9.
23 إحسان الدين أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية، 1999)، 309.
24 يوسف نعيسة، مجتمع مدينة دمشق ما بين 1772- 1840 (دمشق: دار طلاس، 1986)، 389.

الدينية في دمشق العثمانية، دار القراءة الصابونية بسوق الغنم، والتي تقع خارج باب الجابية، أنشأها أحمد البكري المعروف بابن الصابوني. ودار القرآن والحديث التنكزية الواقعة في سوق التبن خلف سوق البزورية، توارث أسرة الحلواني مشيختها، وعرفت وقد ذاع صيتها قرائها. ومن أهم دور الحديث كانت دار الحديث الأشرفية الأولى (الجوانية) من الجانب الغربي من مدخل سوق العصرونية. ودار الحديث الأشرفية الثانية (البرانية)، والتي كانت في سفح جبل قاسيون، حيث كانت موقوفة على قضاء الحنابلة.[25] وعلى الرغم من أنّ هذه المدارس قد عُنيت بالعلوم اللغوية والدينية والمنطق والحساب، إلا أن طلابها لم ينتظموا في صفوف، فكانوا يحفظون ما يتم تلقينهم من علوم ثم يرتحل الميسورون منهم طلباً للعلم.[26] كما خصّصت الأوقاف بعض المدارس لتعلّم أصول الصوفيّة، والتي عرفت باسم "الخانقاه" أو "الزوايا."[27] وبالنسبة للتعليم المسيحي لم يكن أفضل حالاً من مفهوم التعليم الديني عند المسلمين، حيث كان الكاهن هو نفسه معلم المدرسة والتي تكون عادة في حرم الكنيسة أو الدير، ويقوم بتلقين التلاميذ بعضاً من مبادئ اللغة العربية والحساب إلى جانب الديانة المسيحية.

عوامل الانفتاح الثقافي على الغرب

أولاً: محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا

مع نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر زاد اتصال العرب بالغرب، وخصوصاً بعد غزو نابليون لمصر، حيث اعتبرت حملة نابليون على مصر وسورية من أبرز الأحداث التاريخية في العالم العربي، وفاتحة مهمة للقرن التاسع عشر.[28] فانتشرت مدارس البعثات التبشيرية في سوريا ، وبرز محمد علي بقوة على مسرح مصر وابنه ابراهيم باشا في سوريا .[29] لعبت تلك الأحداث مجتمعة الدور الأكبر في التأثير على الحركة التعليميّة والثقافيّة، وزيادة الاهتمام بالعلوم وطلب الالتحاق بالمدارس خصوصاً بعد أن أدرك الدمشقيون أهمية التعليم الحديث للوصول للتمدن الجديد. يذكر كرد علي.

بدأت تباشير العلوم الرياضية والطبيعية، وكانت انحطت انحطاطا أشبه بالاندراس، تقبل على الشام من طريق الديار المصرية، بواسطة النهضة التي انبعثت بعناية محمد علي عزيز مصر فإنه أنشأ مدارس للهندسة والطبّ والترجمة والفنون الجميلة والحربية والبحرية وغيرها، فتخرّج فيها كثير من المصريين وبعض أفراد من الشاميين. وأخذت تسري من أنوارها أشعة نافعة إلى الشام.[30]

يتبين مما ذكره كرد علي أنّ تغييرات واضحة وحراك علمي وثقافي كان قد حصل مع حلول القرن التاسع عشر، فكان للعلوم والمدارس الحديثة بالغ الأثر في تشكيل منابع الثقافة في ولاية سوريا عموماً ودمشق خصوصاً. وإن كان التأثير على الحركة التعليميّة والثقافيّة في البداية بطيئاً، إلا أنه سرعان ما تطّور بعد دخول إبراهيم باشا دمشق وذلك بتشجيع من والده محمد علي والي مصر، فبقي حاكماً فيها من عام 1831 وحتى 1840. جاء الحكم

25 محمد أديب الحمصي، منتخبات التواريخ منشورات (بيروت: دار الآفاق، 1979)، 139.
26 أحمد طربين، ملامح التغير الاجتماعي في بلاد الشام في القرن التاسع عشر (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1983)، 175.
27 الخانقاه، هو مكان لإيواء الفقراء. أما الزوايا فهي معابد يأوي إليها الزهاد والنساك المتعبدون وفيها مسجد ومضافة. للمزيد خير الدين الأسدي، موسوعة حلب المقارنة (حلب: جمعية العاديات، 2009)، 79.
28 Nezar AlSayyad, Cairo: Histories of a City (Cambridge, Massachusetts: The Belknap Press of Harvard University Press, 2011), 171-198.
29 سامي سليمان محمد السهم، التعليم والتغيير الاجتماعي في مصر في القرن التاسع عشر (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 2000)، 72.
30 كرد علي، خطط الشام، 4: 62.

المصري محمّلاً بأفكار التنوير الأوروبيّة راغباً بالتغيّير في شتّى المجالات، وإن كان التعليم أقل حظاً إلا أنّه كان بمثابة لبنة قوية للبلاد الشامية في النهضة، فتمّ الانفتاح على الثقافات الغربية وزادت معه أعداد المدارس.[31]

حافظ الحكم المصري في الديار الشامية على التعليم الديني الذي كان موجوداً سابقاً في ظلّ الادارة العثمانية، والمدعوم من المؤسسات التابعة للمسلمين، كما قامت الإدارة المصريّة بتعميم المدارس أو ما كان يُعرف باسم الكتاتيب في أرجاء الديار الشاميّة، لتعليم مبادئ القراءة والكتابة والقرآن الكريم.[32]

وفي عام 1835قامت حكومة ابراهيم باشا بوضع خطّة لإنشاء مدارس حكومية وفق أنظمة المدارس الحديثة القائمة في مصر. انحصر تركيز تلك المدارس على تعليم المجندين الغير متعلمين في الديار الشامية، فتمّ لهذا الغرض إنشاء مدارس متخصصة اعتمدت في نظامها على مدارس الليسية الفرنسية Le Lycee Francais، وذلك لتخريج ضباط متعلمين يقومون بخدمة مصالح دولة إبراهيم باشا ووالده محمد علي السياسية والعسكرية والحربية.[33] ولهذا السبب لم تحقق تلك المدارس بداية الازدهار والغاية المرجوة لإبراهيم باشا، وذلك لأنّ أهالي الشام كانوا كارهين للعثمانيين، وللسلطة الإنكشارية، وللخدمة العسكرية. فقاموا بتخبئة أولادهم حتى لا يلتحقوا بتلك المدارس، فهم لا يريدون التضحية بأولادهم من أجل حرب مجانيّة تصبّ نتائجها فقط لخدمة السلطة العثمانية في أوروبا الشرقية.[34]

ومع مرور الوقت ولتعطّش الشوام للعلوم والتعليم ازداد الاقبال على تلك المدارس، وبناء عليه تمّ إنشاء مدرسة نظامية في دمشق بلغ عدد طلابها نحو 600 طالب، يتم تعليمهم فيها بعض الحرف، واللّغة التركيّة، إلى جانب تدريبهم عسكرياً. كما تمّ تنصيب مشرف على تلك المدارس تكون مهمّته متابعة شؤون الطلبة، هذا بالإضافة إلى تعيين مدرسين في تلك المدار سيكون متوسط راتبهم الشهري 250 إلى 350 قرشاً.[35] ولكل مدرسة ناظر يترأسها، تكون مهمّته إدارة شؤون المدرسة، وإبلاغ دار الجهادية في مصر عن أي نقص في المستلزمات التعليميّة، ذلك أنّ هذا النوع من التعليم كان مرتبطاً بالجندية.

ثانياً: الكتب والتمدن الجديد

كانت قلّة الكتب عاملاً مهماً في تأخّر الحراك الثقافي، فعلى الرغم من توفر بعض المطابع اليدوية في الأديرة، إلا أنها اقتصرت في طباعتها على الكتب الدينية.[36] وفي بداية العشرينيات من القرن التاسع عشر، ومع ظهور أول مطبعة عربية في القاهرة لطباعة الكتب الأدبيّة والعلميّة، وصلت بعض الكتب المطبوعة إلى البلاد الشامية، إلا أن أعدادها بقيت محدودة.[37] ومع قدوم ابراهيم باشا الأراضي الشامية جلب معه مطبعة حجرية كان قد خصّصها لطبع الأوامر العسكرية والاطلاع على الأخبار اليومية، فتنبه المتنورون الشوام إلى أهمية هذا الآلة في نشر العلوم والمعارف الحديثة،[38] "ومن أعظم الأسباب التي أعانت أوروبا على التمدن اختراع الطبع الذي سبب

31 صلاح احمد هريدي، دراسات في تاريخ العرب الحديث (مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2008)، 488.
32 جورج أنطونيوس، يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس (بيروت: دار العلم للملايين، 1962)، 103.
33 المرجع نفسه، 104.
34 شاكر النابلسي، عصر التكايا والرعايا.
35 أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية: بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير (بيروت: المطبعة الأمريكية، 1943)، 168.
36 كنده السماره، محطات في تاريخ الصحافة العربية في القرن التاسع عشر، في الموقف الأدبي، العدد 505، أيار (2013)، 164-181.
37 أنطونيوس، يقظة العرب، 101.
38 نعيسة، مجتمع مدينة، 398. للمزيد عن مطبعة بولاق، رضوان أبو الفتوح، تاريخ مطبعة بولاق (القاهرة: المطبعة الأميرية، 1953)، 9. عبد اللطيف حمزة، قصة الصحافة العربية في مصر منذ نشأتها إلى منتصف القرن العشرين (القاهرة: دار الفكر العربي للطباعة والنشر، 1985)، 25.

انتشار العلوم، ونشأ عنه من المنفعة بين الأمم ما لا يوصف."[39] أدرك الشوام بأنّ الطباعة هي الدعامة الأساسية التي اعتمد عليها الغرب في إنشاء المدارس، والنمط الهام لتداول وايصال المعرفة، ومنها تصل العلوم وتزدهر المدارس، وهي الوسيلة للتحرّر الفكري والثقافي ضمن المجتمع. فيقول العظم مؤكداً على أهمية وضرورة الطباعة باعتبارها ركناً أساسياً في التمدن الجديد، "الطبع هو السبب الأعظم لانتشار المعارف والعلوم وقد أعان أوروبا على إنشاء المدارس الكثيرة، وتعميم الفوائد والعلوم حتى أضحت مدارسها لا يعزب عنها علم من العلوم ولا فن من الفنون، وحازت أهاليها من التمدن أسمى مكان. "[40]

حاول القائمون على الحركة التعليميّة ايجاد حلّ لتأمين الكتب المطبوعة اللازمة، فطلبوا من المشرفين على المدارس بإعداد قوائم، على رأس كل عام، يتم فيها تحديد أسماء وأعداد الكتب المطلوبة، ومن ثمّ ترسل تلك القوائم إلى ديوان المدارس في مصر لطباعتها، والذي بدوره يعيد إرسالها إلى الولاية الشامية. هذا بالإضافة إلى أنّ الإدارة المصرية وضعت تسهيلات على بيع الكتب وذلك ضمن أقساط مؤجلة يتم اقتطاعها من رواتب العاملين شهرياً.[41] يزعم الكاتب والسياسي جون باورنج John Bowring (1792-1872) "أن الاقبال على شراء الكتب كان ضعيفاً جداً حتى أنه لم يجد بائع كتب في دمشق ولا في حلب."[42] إلا أنّ تلك الرواية تتعارض مع ما تذكره المصادر الأخرى والتي تقول بأن مدينة دمشق سبقت مدينتي بغداد والقاهرة في تأسيس المدارس والعناية بها.[43] لعلّ ما عناه باورنج هو الكتب العسكرية، أو ربما قصد محلات بيع الكتب،-بينما "دور الكتب" تعني المكتبات العامة-فالبلاد الشامية كان فيها من الكتب والمكتبات أكثر مما كان موجوداً في مصر في ذلك الوقت، وذلك بفضل الإرساليات التبشيرية وما حملته معها من كتب والتي كانت تتدفق من شتى أنحاء أوروبا حاملة مختلف أنواع العلوم والمعارف. كما يذكر المؤرخ الحلبي محمد راغب الطباخ المولود في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بأن خمسة من دور الكتب (المكتبات) قد أُنشئت في حلب، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ومن أهمها، المكتبة الأحمدية، والمكتبة الرضائية. هذا بالإضافة إلى ما تذكره العديد من المصادر عن امتلاء الكنائس والأديرة بالكتب المتنوعة وباللغات اللاتينية والسريانية إضافة إلى اللغة العربية.[44]

أدرك المثقفون والقائمون على المعارف في تلك الفترة دور المطبعة في طرح الأفكار والعلوم الجديدة، بعيداً عن الكتب الدينية، وذلك لما لها من أثر بالغ في تزويد الناس القادرين على القراءة بالحقائق والمعلومات. فطرحت الكتب التي شملت مختلف الاختصاصات، من علوم، وآداب، وطبّ، ورياضيات، وطبيعة، وهندسة، وزراعة، وفلسفة، ومنطق، وعلوم فقهية، وتاريخ وغيرها من الكتب وعلى الرغم من أن حكم ابراهيم باشا كان إصلاحياً، إلا أن سياسته في تجنيد الشباب إجبارياً للخدمة العسكرية دفع بالشوام ليقوموا بثورات ضده. فانشغل بتهدئة الثورات، مما انعكس سلباً على الخطة الاصلاحية والتطور التعليمي والثقافي، إلى أن انتهى حكمه بانسحابه في عام 1840.[45]

ثالثاً: التنظيمات

تعني كلمة التنظيمات إدخال بعض معطيات الحداثة الأوربية إلى الدولة العثمانية لتطبيقها على مؤسساتها وإدارتها. حيث قسّم بعض المؤرخين التحولات الثقافية والفكرية اتجاه التمدن الجديد في الولايات العثمانية إلى مرحلتين، المرحلة الأولى هي التي سبقت عصر التنظيمات وكان فيها العثمانيون في زهائهم وقوّتهم وعلى شيء من توازن القوى ومستوى التقدم مع الأوربيين. أما المرحلة الثانية فتبدأ بعصر التنظيمات، حين بادر العثمانيون

39 العظم، البيان في التمدن، 66.
40 المرجع نفسه، 67.
41 هريدي، دراسات في تاريخ العرب الحديث، 490.
42 أنطونيوس، يقظة العرب، 101.
43 الحوراني، التعليم في ولاية دمشق، 19.
44 شاكر النابلسي، عصر التكايا والرعايا: وصف المشهد الثقافي لبلاد الشام في العهد العثماني 1516 – 1918 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999)، 420.
45 شيلشر، دمشق، 65. النابلسي، عصر التكايا والرعايا، 420.

بالاستجابة لعوامل التأثير الثقافي والعلمي الأوربي.[46] حيث اعتبر المؤرخون القرن الثامن عشر فترة ركود وتراجع في الدولة العثمانية في شتى المجالات، قبل أن تأتي محاولات التجديد والاصلاح في القرن التاسع عشر. يذكر المؤرخ الدمشقي رفيق العظم أنّ التقدّم الأوروبي على الدولة العثمانية كان سببه "إقبالهم [الغرب] على العلوم، وتأسيسهم المدارس العظيمة المنتظمة، وتعاضدهم على المصالح الوطنية، بكل ما تقضيه الهمم البشرية والواجبات الإنسانية."[47]

حيث تنبّه العثمانيون إلى مدى تأخرهم عن أوروبا، خاصة بعد الخسائر القوية التي لحقت بهم أمام التقدم الأوروبي.[48] كما شكّل محمد علي باشا في مصر، وابنه ابراهيم باشا في الشام، قوة لا يستهان بها. فشعرت الدولة العثمانية بتأخرها العسكري، وضرورة العلوم والمعارف الحديثة، فكانت تلك الأسباب مجتمعة حافزاً للدولة العثمانية لتقوم بسلسلة من التغييرات والتحديثات، أخذت المؤسسة العسكرية الأولوية منها، فأطلقت عليها اسم التنظيمات.[49] وفي عام 1846 أصدر الباب العالي في عهد السلطان عبد المجيد الأول (1823-1861) قانوناً يتعلق بما سمّي إصلاحات التعليم في أرجاء الامبراطورية العثمانية، وتقوم الدولة بموجب هذا القانون بالإشراف على العملية التعليمية بعد أن كان يشرف عليها الشيوخ ورجال الدين.[50] وعلى الرغم من ذلك بقي التعليم الديني الركيزة الأساسية للمدارس التقليدية، حيث كان مقتصراً في بلاد الشام عامّة، ودمشق خاصة على الجوامع والزوايا والكتاتيب والكنائس والأديرة. واستمرّ تركيز التعليم حول العلوم الدينية على حساب الفلسفة والعلوم الطبيعية وحتى علم الكلام. وكانت إجازة التعليم الممنوحة للطالب تمنح من قبل المدرس الفقيه وحده، وليس من قبل هيئة أو جماعة مستقلة، أي بمعنى آخر لم يكن للمدارس أية صفة قانونية مستقلة بذاتها كمؤسسة اعتبارية.[51] فكان الشيخ أو الفقيه وحده فقط من يشهد بكفاءة التلميذ فيعطيه الإجازة التي تسمح له بأن يدرّس تلك العلوم أو بالأحرى الكتب المعينة لغيره. ومع أن الطريق كان ما زال شائكاً للحدّ من تدخّل السلطة الدينية، إلا أنه ومع حلول عام 1869 صدر قانون المعارف العمومية، فانتظم قانون المدارس بفضله في دمشق. كان التدريس في المدارس الحكومية باللغة التركية، إلى جانب بعض من مواد اللغة العربية، من نحو، وصرف، وتاريخ، وإنشاء، ومحفوظات، وجغرافية، وحساب، وهندسة، وبعض المواد الدينية. كما أُنشيء بموجبه العديد من المعاهد العليا، كمدرسة الطب، ومدرسة الزراعة.[52] اشتمل قانون المعارف الجديد على 198 مادة، وقسّمت بموجبه مراحل الدراسة إلى خمس مراحل،

المرحلة الابتدائية: ألزم قانون المعارف وجود مدرسة ابتدائية في كل قرية، أو قريتين على الأقل. كما ألزم القانون أهل القرية على دفع النفقات اللازمة من تعمير المدرسة، ولوازم المعلمين. كما اعتمد القانون أن تتضمن مناهج التعليم فيه العلوم الدينية من قرآن وتجويد، إلى جانب القراءة والكتابة لكن باللغة التركية. بالإضافة إلى تعليم الحساب، والعلوم، والتاريخ، والجغرافية، ومنع تعليم أي من اللغات الأجنبية.

46 Virginia H Aksan; Daniel Goffman, The Early Modern Ottomans: Remapping the Empire (Cambridge: Cambridge University Press, 2007), 117-135. David Dean Commins, Islamic Reform Politics and Social Change in Late Ottoman Syria (New York: Oxford University Press, 1990), 3-7.

47 العظم، البيان في التمدن، 71.

48 Ekmeleddin İhsanoğlu, Science, Technology, and Learning in the Ottoman Empire (Farnham: Ashgate, 2004), 99-102.

49 وجيه كوثراني،"التنظيمات العثمانية والدستور: بواكير الفكر الدستوري نصاً وتطبيقاً ومفهوماً" في مجلة تبين، العدد، 3، شتاء، (2013)، 1-23.

50 طلال العتريسي، البعثات اليسوعية مهمة اعداد النخبة السياسية في لبنان (بيروت: الوكالة العالمية للتوزيع، 1987)، 51.

51 George Makdisi, The Rise of Colleges (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1981), 140.

52 أحمد حلمي العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين (دمشق: دار دمشق: 1983)، 78.

المدارس الرشدية: أوجب قانون المعارف إنشاء مكتب رشدي واحد (أي مدرسة حديثة) لكل بلدة تضم أكثر من 500 بيت. وعلى صندوق إدارة المعارف في كل ولاية أن يتحمل كافة نفقات بناء المدارس الرشيدية. تكون مدة الدراسة فيها أربع سنوات، تدرس فيها القواعد، والنحو،والصرف، والخط، والانشاء، والتاريخ، والجغرافية، والحساب،والهندسة، وبعض التعليم الديني لكن التعليم باللغة التركيّة.[53]

المدارس الإعدادية: وتُنشأ في الأقضية والألوية التي يتجاوز عدد سكانها 1000 بيت، حيث يقوم صندوق إدارة المعارف بتكفّل المصروفات المتعلقة بإنشاء هذه المدارس، والتي تكون مدة الدراسة فيها بين الخمس إلى سبع سنوات.[54] ومن المدارس الإعدادية التي اشتهرت في دمشق "المكتب الإعدادي-مكتب عنبر" الذي بناه الثري الدمشقي يوسف عنبر عام 1872. يعتبر مكتب عنبر أول مدرسة ثانوية في دمشق تنتهي بالصف التاسع. شيد البيت في الأصل على الطراز الدمشقي المعروف باسم البيت العربي، وهو معلم أثري، يقع شرق الجامع الأموي، ويعتبر من أجمل البيوت الدمشقية. وقد تخرج من مكتب عنبر العديد من الأدباء والسياسيين ومنهم شكري القوتلي، وحسني سبح، وبدوي الجبل وظافر القاسمي وغيرهم العديد، كما كان جودت الهاشمي من أبرز أساتذته.[55]

المدارس السلطانية: أنشئت هذه المدارس في مراكز الولايات فقط، وينتسب إليها فقط الطلاب الناجحون من المدارس الإعدادية، على أن يدفعوا الرسوم المطلوبة.[56]

المدارس العالية: مركزها عاصمة الدولة العثمانية إستانبول، وتضم داراً للمعلمين والمعلمات، ودار الفنون، ومكاتب الفنون والصنائع المختلفة. ويجب على الطلاب المتقدمين إلى أيّ منها أن يكونوا قد أنهوا المراحل السابقة التعليمية بنجاح.[57]

عزز صدور قانون المعارف نشاط إدارات المعارف والحركة التعليمية في الولايات الشامية، فتمّ التأسيس لمدارس بمناهج التعليم الحديث. كما تزايدت أعداد الطلاب من النخبة الإسلامية والمسيحية المرسلة إلى المدارس الحديثة، وبدأت عائلات الملّاكين والبيروقراطيين بإرسال أبنائهم إلى إستانبول لمتابعة تعليمهم العالي الذي سيمكنهم من الحصول على مناصب عالية في الدولة والجيش.

ومع تولي مدحت باشا ولاية سوريا (1879-1880) زادت الحركة والنشاط الثقافي والفكري، فأنشأ في دمشق وحدها ثماني مدارس ابتدائية للذكور والاناث، كما أسس داراً للصنائع، وتمّ فرض عقوبة على كل ولي أمر قد بلغ ابنه السادسة من العمر ولم يرسله والده إلى المدرسة، وبذلك ضمن الوالي مدحت باشا انتشار العلم والتعليم بين مختلف الفئات الاجتماعية. يذكر المفكر فهمي جدعان، "ينبغي أن نعلم أن تمدن الأمة في زمن معين ليس متعلقاً فقط بأفرادها، وإنما أيضاً بحالة حكومتها التي تسير معها وتلائم درجة تلاقيها."[58] هذا الادراك بأهمية التمدّن الجديد، لا يمكن أن يتم إذا لم يلتقي وعي المفكرين والمثقفين مع وعي القادة بأهمية التعليم على النظام الأوروبي الحديث الذي صار عنوان المدنيّة الجديدة، وأحد المقاييس الأساسية للتقدّم والتحول نحو التمدّن الجديد. وهذا ما وضّحه رفيق العظم حين قال، "إن استنهاض هممهم [أي الشباب] متوقف على حث الحكومة ومساعدتها وترغيبها الناس بالمعارف، لتتقدم بذلك الأوطان، وينال أهلها كمال التمدّن والعمران. "[59] أدرك العظم ورفاقه أهمية المدارس لينهضوا بالبلاد، وعبرها ستكسر قيود السلطة التقليدية ويتحرر المجتمع فكرياً ودينياً واجتماعياً

53 عائشة الدباغ، الحياة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (دار الفكر العربي، بيروت 1971)، 106.
54 عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، 256. النابلسي، عصر التكايا والرعايا، 430.
55 ظافر القاسمي، مكتب عنبر: صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية (بيروت: دار العلم للملايين، المكتبة الشرقية)، 1964). صلاح الدين المنجد، ولاة مدينة دمشق في العهد العثماني (دمشق: ب د، 1949)، 93.
56 عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، 256.
57 المرجع نفسه، 255-256.
58 جدعان، الماضي في الحاضر، 490-491.
59 العظم، البيان في التمدن، 33.

وحتى سياسياً. أخذ أبناء الوطن يسيرون بخطى أسرع لمواكبة عنوان التمدن الجديد، فجمعوا الاعانات من الميسورين وأصلحوا حال المساجد والمدارس فيها. وفي عام 1878 قام كل من الشيخ طاهر الجزائري والشيخ علاء الدِّين عابدين وبهاء بك أمين سر الوالي مدحت باشا في دمشق بالاتفاق على تأسيس جمعية علمية اجتماعية على أن يكون اسمها الجمعية الخيرية الإسلامية "جمعية المقاصد الخيرية" التي ماتزال قائمة حتى وقتنا الحاضر، وانتظم في عداد أعضائها نخبة من علماء وأعيان دمشق، كما تولّى رئاستها الشيخ علاء الدين عابدين، فتشجّع الدمشقيون، الذين عرف عنهم ميلهم للتعليم، على إرسال أبنائهم إليها.[60] يقول كرد علي: "دبّت الغيرة في نفوس المسلمين فأنشأوا بعض المدارس الأهلية مثل مدارس المقاصد الخيرية وغيرها في بيروت وصيدا ودمشق وحماة وحمص وحلب وطرابلس فخرّجت هذه المدارس مئات من المتأدبين. "[61] كان الهدف من الجمعية هو تخصيص جزء من إيرادات الأوقاف لدعم التلاميذ والمعلمين واحتياجات المدارس.[62] كما استطاعت جمعية المقاصد انشاء ثماني مدارس في دمشق، وبلغ عدد طلابها نحو 1200 تلميذ، كما أنشأت مدرسة للبنات ضمت 150 تلميذة.[63] ومع نهاية عام 1879 تحولت الجمعية إلى ديوان المعارف، ومع حلول عام 1880 وبدعمٍ من والي دمشق، تمّ جمع كافة الكتب والمخطوطات النَّادرة في مكان واحد، ليكون مكتبة عامة في مبنى المدرسة الظاهرية، وهي التي أصبحت لاحقاً المكتبة الظاهرية.[64]

وفي عام 1883وصل عدد المدارس في جميع البلاد الشامية إلى أكثر من 600 مدرسة في المدن وحدها، وإلى 800 مدرسة في الأرياف، كان فيها أكثر من 2000 معلم ومعلمة.[65] وفي عام 1901 أصدر السلطان عبد الحميد الثاني فرماناً بتأسيس مدرسة الطب في دمشق التي افتتحت في عام 1903 وكانت مدة الدراسة فيها ست سنوات، أما لغة التدريس فهي اللغة التركية، تبعتها مدرسة الصيدلة لاحقاً.[66] وعلى الرغم من الحركة التعليمية الاصلاحية في دمشق العثمانية إلا أن عدد المتعلمين لم يتجاوز في نهاية القرن التاسع عشر أكثر من 10 في المئة، بعد أن كانت نسبتهم لا تتجاوز 2 في المئة في منتصف القرن التاسع عشر.[67] يقول كرد علي:

إن الدولة العثمانية أنشأت المدارس العالية في الاستانة ولا سيما المدرسة الحربية والطب، وبعد حين أحدثت مدارس الحقوق والزراعة والهندسة فأخذ بعض أفراد من الشاميين يدرسون فيها ولكن بالتركية، فكان ذلك إلى آخر عهد العثمانيين في ديارنا من العوائق الكبيرة في سبيل نشر العلم.[68]

فالتطور الفكري والثقافي الذي كان سريعاً نسبياً في بداية عصر التنظيمات، حدّت من عجلته سياسة التتريك. كما أنّ فرض اللغة التركية في المدارس شكّل مانعاً في النهضة الفكرية والتعليمية، إلى أن تأسست جمعية للمعارف في دمشق في عام 1911، فكان جلّ اهتمامها الابتعاد عن السياسة والدين ونشر التعليم والمدارس وتعميمها.[69]

60 للمزيد، حازم زكريا محيي الدين، شيخ طاهر الجزائري، 1268-1338هـ، 1852-1920م رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث (دمشق، دار القلم، 2001)، 33، 34.
61 كرد علي، خطط الشام، 4: 72.
62 المنجد، ولاة مدينة دمشق، 93. جميل صليبا، محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في آداب الحديث (القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، 1958)، 263-264.
63 عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، 255-256.
64 الواقع ان المدرسة الظاهرية تعود الى بدايات العصر المملوكي، وكذلك شأن عدد غيرها من مدارس دمشق. عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، الدارس في المدارس، تحقيق جعفر الحسيني (دمشق: مطبعة الترقي، 1948)، 9. محمد بن علي عز الدين ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة : تاريخ مدينة دمشق (دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1956). محيي الدين، شيخ طاهر الجزائري، 36، 37.
65 عبد الكريم محمود غرايبة، سورية في القرن التاسع عشر، 1740-1876 (القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، 1961)، 164.
66 يوسف الحكيم، سوريا والعهد العثماني (بيروت: المطبعة الكاثولوكية، 1961)، 5.
67 عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، 264.
68 كرد علي، خطط الشام، 4:62.
69 عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، 264.

مدارس الارساليات التبشيرية

ساهمت الارساليات التبشيرية بدور مهم في التعريف بركائز التمدن الجديد، فأدخلت الطباعة، ونشرت الكتب، وفتحت المدارس. فأحسّ الشباب الذين تعلموا في تلك المدارس بالفرق الشاسع فكرياً بينهم وبين معلّميهم فتنبهت عقولهم إلى الهوة الفكرية بينهم وبين الغرب وما هم عليه من وضع سيء.[70]

كان هدف البعثات التبشيرية بداية الترويج لمذهب الدولة التي تنتمي إليها البعثة لكنها عدلت عن ذلك فيما بعد. كانت الإرساليات التبشيرية قد بدأت أولى رحلاتها للبلاد الشامي مع بدايات القرن السابع عشر، إلا أنّ نشاطها بقي محدوداً، حيث اقتصر على إنشاء عدد محدود من المدارس، ونشر بعض الكتب الدينية.[71] تعتبر الارساليات اليسوعية أول من دخل البلاد الشامية، فدخلوا حلب في عام 1625، ودمشق في 1643. وفي عام 1724 جاء النشاط الثقافي للفرنسيسكان وذلك بعد اليسوعيين، فنقلوا تجربتهم للمدارس من فرنسا إلى كل من دمشق وبيروت وطرابلس والقدس. وكان تعليمهم بالدرجة الأولى دينياً، واستمر قرابة القرن والنصف إلى أن توقف في عام 1773 وذلك بعد أن ألغى البابا جمعية اليسوعيين، كما عهد بأديرتهم لتكون بعهدة الآباء العازريين. عادت الارساليات البروتستانتية التبشيرية لبلاد الشام قبل دخول ابراهيم باشا بفترة وجيزة،[72] وأخذ المبشرون الكاثوليك والبروتستانت على عاتقهم مسؤولية فتح المدارس في المدن الشامية.[73] كانت الارساليات الكاثولوكية بداية فرنسية، ثمّ انضمت اليها لاحقاً المدارس الايطالية، أما الارساليات البروتستانتية فكانت اميركية وبريطانية، إلى أن لحقتها البعثات الالمانية بعد ذلك. ثم دخلت روسيا بعدهم مضمار التعليم أيضاً، فأسست عدداً من المدارس في المناطق التي يكون سكانها من الروم الأرثوذكس. لعبت سياسة التسامح التي اتبعها ابراهيم باشا مع الارساليات التبشيرية والمسيحيين أثناء الحكم المصري لبلادي الشام دوراً كبيراً في الحراك الفكري والثقافي، حيث سمح لهم بإقامة مراكز ثابتة يكون لهم فيها كامل الحرية للعمل، متخذين من بيروت مركزاً لهم. كما أرسل ابراهيم باشا بعضاً من طلاب تلك الارساليات لدراسة الطب في مصر وعلى نفقته الخاصة {أي من خزينة الدولة} .[74] قام المبعوثان الأمريكان بليني فسك، وزميله اسحق برد بتأسيس مدرسة في بيروت لتعليم اللغتين الانكليزية والايطالية.[75] وأسس الاثوذكس اليونان مدرسة لهم في دمشق تم ألحقت بالكنيسة، كما اتسمت الدراسة فيها بالإضافة إلى الدين بتدريس تاريخ اليونان، ومن ثم لحقتها مدرستين في بيروت والقدس.[76] كانت معظم الارساليات إلى دمشق كاثولكية، وأغلبها فرنسية، وتميزت مدارسهم بميزانيتها العالية، وخبرة معلميها واعتمادهم على مناهج وأنظمة أوروبية كانت نواة المدنية الجديدة التي أدركها المثقفون العرب. وفي عام 1832 بدأ التعليم الابتدائي للمبشرين الأمريكان في الشام، إلى أن أصبح مجموع مدارسهم في عام 1834 ست مدارس.[77] كان للإرساليات الدور الأبرز في محو الأمية، واحياء اللغة العربية، واكساب طلابها مهارة إتقان اللغات الاجنبية، فأعدت جيلاً من المثقفين المتنورين. فاُعتبر عام 1834 هو بداية النهضة التعليمية في سائر البلاد الشامية، سواء من خلال سياسة ابراهيم باشا ورغبته بتطبيق نظام التعليم الحديث على النسق الأوروبي كما فعل أبوه محمد علي باشا في مصر.[78] أو بعد إعادة الآباء العازاريين افتتاح مدارسهم الخاصة للذكور في عين طوره، أو بعد تأسيس كل من إيلي سميث وزوجته مدرسة للبنات في بيروت، وجلبهم لمطبعتهم من مالطة إلى بيروت.[79] فأصبحت

70 يوسف سلامة، "الإصلاح الديني وعودة التفلسف العربي" مجلة الطريق، ع: 1، يناير/ فبراير، (1997)، 33.
71 أنطونيوس، يقظة العـرب، 97. النابلسـي، عصر التكايا والرعايا، 422. كمال اليازجي، رواد النهضة الأدبية في لبنان الحديث 1800-1900 (لبنان: مكتبة رأس بيروت، 1962)، 109.
72 محمد أنيس، تاريخ الدولة العثمانية في المشرق العربي 1514-1914 (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، د ت)، 266.
73 عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، 266.
74 أنيس صايغ، الفكرة العربية في مصر (بيروت: مطبعة هيكل الغريب، 1959)، 100-104.
75 النابلسـي، عصر التكايا والرعايا، 422.
76 هريدي، دراسات في تاريخ العرب الحديث، 490-491.
77 عبد الرازق عبد الرازق عيسى، التنصير في بلاد الشام 1834- 1914 (القاهرة: مكتبة مدبولي، 2005)، 114.
78 جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة: دار الهلال، 1931)، 4: 13.
79 زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، 4: 8. أنطونيوس، يقظة العرب، 100.

الطباعة في سوريا منذ ذلك العام تجارة رابحة.[80] شكلت تلك الأسباب جميعاً قاعدة مادية راسخة انطلقت منها النهضة التنويرية، جعلت من ضرورة وأهمية المدارس عنواناً لها،هذا ما أدركه الرواد التنويريون، فيقول كرد علي، "الفضل في هذه النهضة الشامية أولا لمدارس لبنان وبيروت وعناية بطاركة الموارنة ومطارنتهم وأساقفتهم وقسيسيهم بالعلم واللغة. أما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية فانبعثت جذوتها من الجامعة الأميركية (الكلية السورية الإنجيلية سابقاً) أكثر من غيرها."[81] على الرغم من خروج ابراهيم باشا في عام 1840، إلا أن الارساليات التبشيرية استطاعت متابعة نشاطها التعليمي، خاصة بعد إصدار السلطان عبد المجيد (1839-1861) ما عُرف بالتنظيمات الخيرية، محاولاً عبرها اللحاق بالركب الأوروبي.[82] أصدر السلطان فرمان (عُرف باسم خطي -شريف كلخانه)، تلخصت أهميته في التعرّف على أسباب تراجع الدولة العثمانية، ووضع المقترحات والحلول لمجاراة التقدّم الغربي.[83] بموجب الفرمان استطاعت البعثات التبشيرية متابعة نشاطها التعليمي، فقد نصّ الفرمان على مساواة الجميع بغض النظر عن الدين، واحترام الحريات، وإعطاء الحريات الدينية الكاملة، وحذف كل المفردات والألفاظ التي تشير إلى التمييز ضمن المراسلات الرسمية.[84] كان للفرمان بالغ الأثر في حرية حركة الإرساليات التبشيرية ضمن الأراضي العثمانية. مما جعل بعض المؤرخين يعتبرون الهدف من وراء هذه التنظيمات هو حرمان الدول الأوربية لأيّ ذريعة في فرض الحماية على الرعايا المسيحيين في أراضي الدولة العثمانية.[85] ومهما تكن أسباب تلك التنظيمات، فإن لفرمان خط شريف كلخانه والفرمان المعروف بخطي شريف همايوني الذي صدر بعده في عام 1856 بالغ الأثر في مرحلة التحديث التي قامت بها السلطة العثمانية.[86] تمّ التأكيد في الفرمان الهمايوني على ما جاء من بنود في فرمان خط كلخانه، ولو أنّ بنوده وصيغته كانت أكثر تأثّراً بالغرب، حيث ساوى الفرمان في الحقوق بين جميع الملل الدينية ليشمل أرجاء الدولة العثمانية عامة، وبلاد الشام خاصة المعروفة بتعددها الطائفي.[87] وبذلك تكون قد فتحت الحكومة العثمانية أبواب وظائف الدولة والتعليم الرسمية أمام المسيحيين والملل الأخرى.[88]

آفة التعصب

مع كل الجهود التنويرية المبذولة لدفع عجلة التعليم، وحتى مطلع الستينات من القرن التاسع عشر، بقيت المدارس ترزح تحت رحمة العباءة الدينية. كان موقف المسلمين المتشددين دينياً من المدارس والمعارف الحديثة نفس الموقف الذي وقفتهالكنيسة فيما مضى في عصر الظلام الأوروبي، واعتبروا أن العلوم الحديثة في تلك المدارس كفراً.[89] إلا أن نواة النهضة العلمية كانت قد بزغت في البلاد الشامية، فاشغل موضوع الدين العديد من المتنورين الشوام، وخاصة بعد نشوب الحرب الأهلية المشؤومة في عام 1860.[90] امتدت الحرب من جبال لبنان لتصل دمشق، ومن ثمّ جنوبها، فأصبح الشغل الشاغل للمثقفين العرب هو تنبيه الجيل من خطر الانزلاق بآفة التعصب، وظهرت فئة من الشباب المتنورين المطالبين بفصل الدين عن التعليم ومحاربة أي تعصب ديني. وكان من أبرزهم المعلّم بطرس البستاني (1816-1883) وجهوده في صحيفته نفير سوريا، وتأسيسه للمدرسة الوطنية منادياً بأن ما حلّ بالسوريين من تراجع "ناجم بالطبع عن غياب الألفة والمحبة وعن استسلامهم واذعانهم

80 توبي هف، ترجمة: محمد عصفور، فجر العلم الحديث: الإسلام-الصين-الغرب (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997)، 247.
81 كرد علي، خطط الشام، 4: 72.
82 عيسى، التنصير في بلاد الشام، 14-15.
83 نايف صياغة، الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق في منتصف القرن التاسع عشر (دمشق: وزارة الثقافة، 1995)، 19. وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2003)، 251.
84 محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية (بيروت: دار الجيل، 1977)، 254-256.
85 أحمد عبد الرحيم مصطفى، أصول التاريخ العثماني (القاهرة، دار الشروق، 1993)، 201-202.
86 المرجع نفسه، 202.
87 عيسى، التنصير في بلاد الشام، 15-16.
88 مصطفى، أصول التاريخ العثماني، 222.
89 النابلسي، عصر التكايا والرعايا، 417، 418.
90 سهيل زكار، تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر (دمشق: دار التكوين للدراسات والنشر، 2006)، 379.

لجبروت التعصب الديني – المذهبي الأعمى" يذكر الباحث جمال باروت أنه حين "تولى المنورون الشباب في الستينات، في ضوء أفكار عصر التنوير الفرنسي ومبادئ الثورة الفرنسية والدعوة للتنظيمات بوصفها الطريق الوحيد الذي يجدد الامبراطورية ويمكنها من استيعاب روح العصر، ويوقف تدهورها. "[91] فدخلت حركة التنوير الأوروبي في العالم العربي عتبة مرحلة تاريخية جديدة، لعب فيها المثقف التنويري في كل من دمشق وبيروت دوراً محورياً في بثّه العلوم الجديدة عبر مدارس حديثة بعيدة عن تلك ذات النمط التقليدي. حيث "تجلت فيه فائدة العلم لعامة الشعب، فصار الناس يلقون بأولادهم لأي مدرسة كانت ليأخذوا العلم منها."[92] وزادت رحلات المتعلمين والمفكرين العرب إلى أوروبا، وخصوصاً فرنسا وانكلترا وايطاليا، وانكبّ الشباب على دراسة اللغات والآداب في الدول الغربية رغبة منهم بالتعرّف على أدوات التمدّن الجديد في تلك البلاد والتي قطعت شوطاً كبيراً في المجالين العلمي والثقافي، فعادوا متشبعين بالأفكار الليبرالية.[93] يذكر قساطلي أنه في عام 1879 كانت مدارس النصارى تدرّس جميعها يومياً، وكانت مناهجها تتضمن العربية والتركية والفرنسية واليونانية والجغرافية، والحساب.[94] ومع عام 1880 زاد عدد المدارس في دمشق، وكان العدد الأكبر منها هو المدارس التبشيرية الفرنسية، لتضم أربع مدارس أسهمت في تقوية اللغة العربية وجعلها أكثر مرونة لترجمة العلوم الحديثة. أدى ظهور المدارس ذات النظام التعليمي الحديث إلى ظهور أجيال متنورة، كان لها الدور الأكبر بتوفير فضاء فكري دمشقي متحرر. دعا فيه المثقفون الشوام إلى قيم الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية وتحرير المرأة، وأدركوا أنها طريقهم للوصول إلى التمدن الجديد. وفي عام 1885 بلغ عدد المدارس الأجنبية في دمشق وحدها 28 مدرسة عالية، و10 مدارس ابتدائية.[95] وعلى الرغم من أن الهدف الأساسي لهذه المدارس هو خدمة الأقليات الموجودة، إلا أن الطلبة المسلمين أيضاً التحقوا بها، فتلقوا فيها العلوم الحديثة واللغات الأجنبية، مما أهلهم للحصول على وظائف رفيعة في الدولة ومراكز هامة في القنصليات الأوربية.

الخاتمة

شهد القرن التاسع عشر حركة علمية وثقافية وفكرية أدرك فيها المثقفون الشوام أنّ المعارف الحديثة هي الركيزة الأساسية للتمدن الجديد. كما كان لروح التحرّر لدى بعض النخب الثقافية في المجتمع الدمشقي الدور الهام في الإقبال على أدوات الحداثة، فقاموا جاهدين بطرح مبادئ التنوير التي استلهموها من الفكر الأوروبي، فأسسوا المدارس الحديثة، تبعتها الجمعيّات العلميّة، والصالونات الأدبية كصالون مريانا مراش (1848-1919) وصالون ماري عجمي (1888-1965)، والصحف والمجلّات الثقافية.[96] استندت حركتهم على بثّ العلوم الحديثة واللغة والآداب والتاريخ وتأسيس المدارس البعيدة عن السلطة الدينية، خاصة بعدما التاعوا من ويلات الحرب الطائفية. كانت مطالبهم في إرساء لبنة تعليمية قوية لينطلقوا منها للحداثة. فالتمدن الجديد لا يتنكّر للحضارة العربية الاسلامية بل سوف يعيدها إلى قوتها وأمجادها. وبالمدراس والتعليم يمكن الوصول للتقدّم الاجتماعي

91 محمد جمال باروت، حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر (دمشق: وزارة الثقافة، 1994)، 1.
92 كرد علي، خطط الشام، 4: 72.
93 Ibrahim Abu-Lughod, Arab Rediscovery of Europe (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963), 23-26. Albert Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age (London, New York, Oxford University Press, 1962), 4–7.
94 قساطلي، الروضة الغناء، 118.
95 عوض، الإدارة العثمانية، 266.
96 حسين العودات، "المطابع والمكتبات والصحافة في دمشق في القرن التاسع عشر" في المعرفة، كانون الثاني (2008)، 324.
James Van Horn Melton, The Rise of the Public in Enlightenment Europe (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), 197-214. Daniel Gordon, "Postmodernism and the French Enlightenment," Historical, vol. 25, no. 2, (1999), 177-182. Jonathan Israel, A Revolution of the Mind (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2010), 37-91. Jonathan Israel, Radical Enlightenment: Philosophy and the Making of Modernity, 1650-1750 (Oxford: Oxford University, 2001), 142-152.

والثقافي والفكري، الذي سينشل الشرق العربي من حالة الركود ويجدد حضارته. وماكانت الحركة الثقافية والتعليمية لتنجح في وضع ركائزها الأولى لو لم يتم فيها الإصغاء إلى الآخر والانتباه إليه للحاق بتفوقه. وإن كان المثقفون في القرن التاسع عشر، مسلمون ومسيحيون، قد طالبوا بالتعليم الحديث بعيداً عن التعليم الديني التقليدي، فهم بمطلبهم هذا لم يكونوا معادين للحضارة الإسلامية، فالنقاش في شرعية العلوم والتعليم الحديث هو ليس خلافاً إسلامياً- مسيحياً، بل هو فائدة تجمع الاثنين معاً للحاق بركب التطور الغربي. ولم يكن لعصر النهضة العلمية في أوروبا بأن ينجح لولا إعطائه الحرية للتعليم والتفكير العلمي الموضوعي، متمثلاً بمؤسسات علمية لها صفة قانونية واصطدمت وجهاً لوجه باللاهوت المسيحي، فكانت أفكار أفلاطون وأرسطو وابن رشد هي الأساس في النهضة العلمية والفكرية في أوروبا. إنّ توفير مساحة من الحرية في التعليم والعلوم بعيداً عن القيود الدينية لهو في غاية الأهمية في وقتنا الحالي. يذكر الباحث توبي هف (Toby E. Huff)، بأنّ "حرية البحث العلمي من أخطر الثورات الفكرية والاجتماعية في تاريخ البشرية،"[97] والتي تمّت بعدما اتخذ الغرب في ثورته العلمية عوامل الشمولية، والجماعية، والشك المنظم، وانعدام الهوى الشخصي، باعتبارها كانت صيغاً نموذجية في البنى الموجِّهة السائدة في المجتمع، وهذا بحسب رأي هف ما يفسر فشل العالم العربي في إنجاب العلم الحديث.[98] فالقائمون على الشريعة الإسلامية ما زالوا يتمثلون الشخصانية في كل المواقف الإنسانية. واليوم، وعلى الرغم من نشوء هيئات مستقلة في العالم العربي والتي تمّ استعارة أسسها الغربية في القرن التاسع عشر، إلا أنها مازالت عاجزة عن إقامة منطقة محايدة للعلوم دون الخوف من تدخل القوانين التي تستند على فهم ضيق للتعاليم الدينية. فمعالجة أسباب تأخر الحال العربي اليوم وتدهور التعليم إنما يحتاج للجرأة والصراحة وعدم الخوف من أي مؤسسة سياسية أو دينية أو علمية. فبهذا الوضع الراهن، مازال الطريق إلى تحقيق بعض من الحداثة الحقيقية في العالم العربي شائكًا وصعبًا، ما لم يتم فيه فصل الأمور الدنيوية عن الدينية؛ وهذا من أهم الشروط اللازمة للحاق بالركب الغربي.

المراجع

المراجع العربية

(1) أبو الفتوح، رضوان. تاريخ مطبعة بولاق (القاهرة: المطبعة الأميرية، 1953).
(2) أبو زيدون، وديع. تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2003).
(3) الأسدي، خير الدين. موسوعة حلب المقارنة (حلب: جمعية العاديات، 2009).
(4) أنطونيوس، جورج. يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس (بيروت: دار العلم للملايين، 1962).
(5) أنيس، محمد. تاريخ الدولة العثمانية في المشرق العربي 1514-1914 (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، د ت).
(6) أوغلو، إحسان الدين. الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية، 1999).
(7) باروت، محمد جمال. حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر (دمشق: وزارة الثقافة، 1994).
(8) الجالودي، عليان. التحولات الفكرية في العالم الإسلامي: أعلام، وكتب، وحركات، وأفكار من القرن العاشر إلى الثاني عشر الهجري (الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الاسلامي، 2014).
(9) جدعان، فهمي. الماضي والحاضر، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997).

97 توبي هف، ترجمة: محمد عصفور، فجر العلم الحديث: الإسلام-الصين-الغرب (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997)، 17.
98 المرجع نفسه، 233-234.

(10) جعيط، هشام. "أثر فلسفة التنوير على تطور الفكر في العالم العربي - الإسلامي" مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد، 37، كانون الأول، كانون الثاني (1985- 1986).
(11) حكيم، يوسف. سوريا والعهد العثماني (بيروت: المطبعة الكاثولوكية، 1961).
(12) الحمصي، محمد أديب. منتخبات التواريخ منشورات (بيروت: دار الآفاق، 1979).
(13) حمزة، عبد اللطيف. قصة الصحافة العربية في مصر منذ نشأتها إلى منتصف القرن العشرين (القاهرة: دار الفكر العربي للطباعة والنشر، 1985).
(14) حوراني، ألبرت. تاريخ الشعوب العربية، (دمشق: دار طلاس، 1997).
(15) الحوراني، محمد ابراهيم. التعليم في ولاية دمشق في العصر العثماني (دمشق: وزارة الثقافة، 2015).
(16) خوري، رئيف. الفكر العربي الحديث، أثر الثورة الفرنسية في توجيهيه السياسي والاجتماعي، تحقيق محمد كامل الخطيب (دمشق: وزارة الثقافة، 1993).
(17) الدباغ، عائشة. الحياة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (دار الفكر العربي، بيروت 1971).
(18) رافق، عبد الكريم. تاريخ الجامعة السورية: البداية والنمو 1901-1946: أول جامعة حكومية في الوطن العربي (دمشق: مكتبة نوبل، 2004).
(19) رستم، أسد. المحفوظات الملكية المصرية: بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير (بيروت: المطبعة الأمريكية، 1943).
(20) زكار، سهيل. تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر (دمشق: دار التكوين للدراسات والنشر، 2006).
(21) زيدان، جرجي. تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة: دار الهلال، 1931).
(22) زيدان، جرجي. تاريخ التمدن الاسلامي (القاهرة: دار الهلال، 1914).
(23) السماره، كنده. محطات في تاريخ الصحافة العربية في القرن التاسع عشر، في الموقف الأدبي، العدد 505، أيار (2013).
(24) سلامة، يوسف. "الإصلاح الديني وعودة التفلسف العربي" مجلة الطريق، ع: 1، يناير/ فبراير، (1997).
(25) السهم، سامي سليمان محمد. التعليم والتغيير الاجتماعي في مصر في القرن التاسع عشر (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 2000).
(26) الشبول، أحمد. في كتاب نجمة حجار (تحرير)، أمين الريحاني والتجدد العربي: تحديات التغيير في الأدب والفكر والمجتمع (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012).
(27) الشدياق، أحمد فارس. الرحلة الموسومة بالواسطة إلى معرفة مالطة، وكشف المخبا عن فنون أوروبا (تونس: مطبعة الدولة التونسية، 1866، [1283ه]).
(28) شيلشر، ليندا. دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة، عمرو الملاح - دينا الملاح (دمشق: دار الجمهورية، 1998).
(29) صايغ، أنيس. الفكرة العربية في مصر (بيروت: مطبعة هيكل الغريب، 1959).
(30) الصباغ، ليلى. الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1989).
(31) صليبا، جميل. محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في آداب الحديث (القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، 1958).
(32) صياغة، نايف. الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق في منتصف القرن التاسع عشر (دمشق: وزارة الثقافة، 1995).
(33) طربين، أحمد. ملامح التغير الاجتماعي في بلاد الشام في القرن التاسع عشر (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1983).
(34) عيسى، عبد الرازق عبد الرازق. التنصير في بلاد الشام 1834- 1914 (القاهرة: مكتبة مدبولي، 2005).

(35) العتريسي، طلال. البعثات اليسوعية مهمة اعداد النخبة السياسية في لبنان (بيروت: الوكالة العالمية للتوزيع، 1987).
(36) العش، محمد بسام. دمشق بين الماضي والحاضر (دمشق: محمد بسام العش، 2006).
(37) العظم، رفيق. البيان في التمدن وأسباب العمران (القاهرة: المطبعة المصرية، 1886).
(38) العلاف، أحمد حلمي. دمشق في مطلع القرن العشرين (دمشق: دار دمشق: 1983).
(39) العودات، حسين. "المطابع والمكتبات والصحافة في دمشق في القرن التاسع عشر" في المعرفة، كانون الثاني (2008).
(40) غرايبه، عبد الكريم محمود. سورية في القرن التاسع عشر، 1740-1876 (القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، 1961).
(41) فريد، محمد. تاريخ الدولة العلية العثمانية (بيروت: دار الجيل، 1977).
(42) قساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء (بيروت: دار الرائد العربي، 1879).
(43) كرد علي، محمد. خطط الشام (دمشق: مكتبة النوري، 1983).
(44) كوثراني، وجيه. "التنظيمات العثمانية والدستور: بواكير الفكر الدستوري نصاً وتطبيقاً ومفهوماً" في مجلة تبين، العدد، 3، شتاء، (2013).
(45) محمد عوض، عبد العزيز. الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914 (القاهرة: دار الفكر العربي، 1969).
(46) محيي الدين، حازم زكريا. شيخ طاهر الجزائري، 1268-1338هـ، 1852-1920م رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث (دمشق، دار القلم، 2001).
(47) مصطفى، أحمد عبد الرحيم. أصول التاريخ العثماني (القاهرة، دار الشروق، 1993).
(48) مكاريوس، شاهين. المعارف السورية، أعمال المجمع العلمي الشرقي، جلسة 10 كانون الثاني (1882).
(49) المنجد، صلاح الدين. ولاة مدينة دمشق في العهد العثماني (دمشق: ب د، 1949).
(50) النابلسي، شاكر. عصر التكايا والرعايا: وصف المشهد الثقافي لبلاد الشام في العهد العثماني 1516 – 1918 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999).
(51) النعيمي، عبد القادر محمد. الدارس في المدارس، تحقيق جعفر الحسيني (دمشق: مطبعة الترقي، 1948).
(52) نعيسة، يوسف. مجتمع مدينة دمشق ما بين 1772- 1840 (دمشق: دار طلاس، 1986).
(53) هريدي، صلاح احمد. دراسات في تاريخ العرب الحديث (مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،2008).
(54) هف، توبي. ترجمة: محمد عصفور، فجر العلم الحديث: الإسلام-الصين-الغرب (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997).
(55) اليازجي، كمال. رواد النهضة الأدبية في لبنان الحديث 1800-1900 (لبنان: مكتبة رأس بيروت، 1962).

المراجع الأجنبية

(56) Abu-Lughod, Ibrahim. Arab Rediscovery of Europe (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963).
(57) Aksan, Virginia H; Daniel Goffman. The Early Modern Ottomans: Remapping the Empire (Cambridge: Cambridge University Press, 2007).

(58) AlSayyad, Nezar. Cairo: Histories of a City (Cambridge, Massachusetts: The Belknap Press of Harvard University Press, 2011).
(59) Anderson, Betty S. American University of Beirut: Arab Nationalism and Liberal Education (Austin: University of Texas Press, 2014).
(60) Ben-Zaken, Avner. Cross-Cultural Scientific Exchanges in the Eastern Mediterranean, 1560–1660 (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2010).
(61) Casale, Giancarlo. The Ottoman Age of Exploration (Oxford: Oxford University Press, 2010).
(62) Commins, David Dean. Islamic Reform Politics and Social Change in Late Ottoman Syria (New York: Oxford University Press, 1990).
(63) Deguilhem-Schoem, Randi Carolyn. History of Waqf and Case Studies from Damascus in Late Ottoman and French Mandatory Times (New York: Pro Quest NYU, 1985).
(64) Evered, Emine Önhan. Empire and Education under the Ottomans: Politics, Reform, and Resistance from the Tanzimat to the Young Turks (London: I.B. Tauris, New York: Palgrave Macmillan, 2012).
(65) Gordon, Daniel. "Postmodernism and the French Enlightenment," Historical, vol. 25, no. 2, (1999).
(66) Hourani, Albert. Arabic Thought in the Liberal Age (London, New York, Oxford University Press, 1962).
(67) Hudson, Leila. Transforming Damascus: Space and Modernity in an Islamic City (London; New York: Tauris Academic Studies, 2008).
(68) İhsanoğlu, Ekmeleddin. Science, Technology, and Learning in the Ottoman Empire (Farnham: Ashgate, 2004).
(69) Israel, Jonathan. A Revolution of the Mind (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2010).
(70) Israel, Jonathan. Radical Enlightenment: Philosophy and the Making of Modernity, 1650-1750 (Oxford: Oxford University, 2001).
(71) Melton, James Van Horn. The Rise of the Public in Enlightenment Europe (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).
(72) Shboul, Ahmad. "Between Rhetoric and Reality: Islam and Politics in the Arab World," In Nelly Lahoud; Anthony H Johns (eds.), Islam in world politics (London and New York: Routledge, 2005).
(73) Somel, Selçuk Aksin. The Modernization of Public Education in the Ottoman Empire, 1839-1908: Islamization, Autocracy and Discipline (Leiden: E. J. Brill, 2001).